كلمة

اميل كونستانتينيسكو
الرئيس السابق لرومانيا

التراث الأوروبي الثقافي موضوع صعب وحساس للغاية لجميع المهتمين في المحافظة على التاريخ و يعتبرون دراستة دراسة قيمة. الدراسات التي كتبت عن هذه المسألة وصلت الى عدد هائل ومع ذلك لم يتوفر حلا قابلا للتطبيق على الاطلاق. الصعوبة الرئيسية تتمثل في الطابع غير الموضوعي لفكرة التراث.

بشكل لا إرادي يفضل الباحث الغربي الحقائق التاريخية والثقافية عندما يتصورها و يجدها على أنها أكثر جاذبية هذا من جهة، و من جهة اخرى تجد المؤرخ الشرقي دائما يرجع إلي تقاليد أسلافه ، ويميل إلى وضع القيم التي لا تشاركة في التقليد المحدد في مرتبة ثانية. في مثل هذه الحالات ، يبدو أن فكرة التراث الثقافي تقتصر على التمييز بين المفاهيم وتسوية الحواجز بشكل عشوائي بدلا من التحديد الصادق و الحسي للقيم الثقافية المزمنة التي تركت بصماتها بشكل حاسم على الثقافة الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن كل الخلافات من هذا النوع تؤجج على وجه الحصر تقريبا بفعل الانتماء الديني أو المذهبي. ونظرا لهذه الظروف فإن السبيل الوحيد في الواقع لحل مثل هذه

الخلافات هو الحوار؛ الحوار المبني وفقاً للجوانب المختلفة للواقع : العلمية والثقافية و الاجتماعية والفنية ، وأخيراً وليس آخراً ، الدينية. بطبيعة الحال ، فإن هذا ينبغي أن يكون حواراً على أساس مفهوم الوحدة ضمن التنوع. ولبس من قبيل الصدفة أن كتب نيكولاس كتاب صغير الحجم بعنوان (السلام بين الأديان)، هذا العمل الذي تم تجاهله لفترة طويلة على الرغم من أهميته.

هذا المؤتمر الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي تحت رعاية صاحب الجلالة الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ، يمكن أن يكون نموذجاً يحتذى به في محاولة وضع أسس لنظام فعال ودائم للحوار بين الأديان. يقف وراء هذا المشروع الوعي الواضح بأهمية الحياة الدينية للمجتمع المعاصر، وكذلك الرغبة في تقدير ليس فقط النقاط المشتركة ، ولكن ، حتى أكثر من ذلك ، الاختلافات الثقافية ، والاجتماعية والدينية ، من أجل ضمان فهم أفضل للواقع الذي نعيش فيه. وليس بأقل من ذلك أيضاً يتضح التأكيد على أهمية الحوار بين الأديان في سياق تفاقم الأصولية ، في كل من العالمين الإسلامي والمسيحي. فالمواجهة بين الإسلام والمسيحية ليست بأي حال من الأحوال حديثه العهد. على العكس من ذلك ، يمكن للمرء أن يقول إن ولادة الحضارة الأوروبية تتزامن مع بدء الحوار بين الإسلام والمسيحية ، ذلك الحوار الثري في دقائقه و نتائجه التي غيرت بشكل جذري النظرة إلى المجتمع ، وكذلك النظم السياسية و الحياة الدينية. قد يبدو غريباً أن التراث الثقافي الذي نريد أن ندخل فيه سيكون بمثابة دليل على جهودنا لبناء فرضيتنا. إذا نظرنا إلى

الوراء ، نحـو القرون الوسطى ، فسـيكون هناك مـا يدعو إلى الاعـتـقـاد بإن المجتمع الإسلامي و المجتمع البيزنطي المسيحي كانا في صراع دائم ، وخير مثال في هذا الصدد هي الحروب الصليبية. كل من هذه الطوائف كان على اقتناع بتفوقه الروحاني مع ايمان كامل أن كل منهما يحمل الحقيقة. كل واحد منهم افتخر بالتوليفة المركبة لديه بين الدين والثقافة والمجتمع والنظام السياسي واعتبارها أفضل إطار لحياة الإنسان. كلا المجتمعان كانا يختلفان في النماذج اللغوية والعرقية والعسكرية والتجارية الا أن المرء يمكن أن يلاحظ أن هناك الكثير من أوجه الشبه عندما يتم التركيز على جانب المعرفة. خلافا عنا فإن رجل العصور الوسطى ، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا ، كان يري في الفلسفة وعلوم العقائدشيء لا فكاك منه يحكم الفكر والحياة.

و الطرق الفلسفية و الفكر العقائدي عمل أكثر من مجرد وصف المفاهيم المجردة الي كان يقصد منها سبى العقول المستنيرة لجامعات القرون الوسطى، ولكن الحقائق كانت في متناول الجميع وفقا لقدرات الشخص الاستيعابية. وهذا يعني أنه على الرغم من العديد من الصراعات بين المسيحية والإسلام إلا أن مسار الأفكار لم يتعرض أبدا للخطر. المسيحية الغربية جلبت معها الطموح إلى السلطة والعطش الى المعرفة و كلتهما متجذرتين في التقاليد اليونانية والرومانية.ولكن على الجانب الآخر ،سوى الإسلام بين كفتي الميزان عبر نظام ثقافي اجتماعي سياسي متين يقوم بشكل كبير على المبادئ الدينية. وهذا يمثل المفتاح في فهم الانتشار الغير عادي للإسلام: الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى يحكم كل شيء ، ويحكم كل

الخلق، وأن أفعاله وأوامر وصلت عن طريق نبيه محمد ﷺ. نجد أنفسنا أمام قضيتين، أمام عهدين، أمام مستويين من الحقيقة : المطلق والنسبي ، والأسباب والنتائج ، الله والعالم.

الإسلام دين اليقين والتوازن ، في حين أن المسيحية هي دين المحبة والتضحية. فإنه لا ينبغي أن يفهم أن كل من الديانتين لديها احتكار. وبدلا من ذلك ، سيكون من الأنسب القول إن كل واحدة منهما تؤكد على جانب واحد من الحقيقة. من الصعب أن نرى أن ذلك التوازن بعينه الذي نتكلم عنه عند النظر في التطور الحالي للعلاقة بين الديانتين التوحيدتين في جميع أنحاء أوروبا. يبدو أن الحقيقة الوحيدة التي تصلنا هي:

الخصومة ، والصراع في الميادين المختلفة وعدم التسامح المتبادل وعدم وجود أي رغبة في الحوار. ومع ذلك ، يجب ألا ننسى أن كل هذه ليست سوى نتيجة الفهم النصفي للتاريخ ،هذا التاريخ الذي يريد كل جانب أن يحتفظ فقط بالجانب المظلم. فإنه يكاد يكون يوميا حيث تمطرنا وسائل الإعلام بالأخبار المزعجة المتعلقة بهجرة المسلمين الى حدود الاتحاد الأوروبي ، والإصرار على ما يسمى عدم قدرتهم على التكيف مع معايير وواقع العالم الغربي. ونظرا لهذا الوضع ، يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا سؤالاً بسيطاً جداً ولكنه ذو علاقة وطيدة : هل نحن حقاً نعرف قيمنا ومعاييرنا؟ أم أن كل شئ يختزل إلى فهم ضحل للأمور، فالأكثر ملاءمة، فالأكثرخطراً؟ سأعود إلى صورة من القرون الوسطى بعيداً عن الصورة القاتمة؛ فقد تميز ذلك العصر بهيجان وفوران ثقافي استثنائي ورغبة عارمة

للمعرفة التي غذت الحضارة الحالية. وكان في هذا السياق أن تعلمت أوروبا من الإسلام أن العالم كتلة واحدة يضم كلاً من الميادين الدينية والفلسفية، فضلاً عن العلمانية، وأنه ينبغي أن يتم التعامل معه على هذا النحو. ظهرت هذه الروح لأول مرة في العالم الإسلامي عند نشر سلسلة من البحوث بعنوان (التجارب). و كان أول المساهمين في هذه السلسلة أبو العلاء المتوفى حوالي ١٠٧٨ م من قرطبة، والد الطبيب الشهير ابن زهر؛ حيث اتبع أفكاره الفلسفية واللاهوتية على التوالي المسيحي، واليهودي والمسلم، بدون التورط في خطر التنازل عن الدين. هذة الحقيقة في حد ذاتها غير عاديه وذلك من خلال رؤية القدرة الموحدة للإسلام، وإنما أيضاً من خلال أمكانية تطبيقها. إذا كان منذ ما يقرب من ألف سنة تمكنت الديانات الثلاث الكبرى من الاجتماع؛ فلماذا، إذن، يبدو اليوم من المستحيل تحقيق هذا الإنجاز؟ لماذا، إذن، يبدو مقدراً لهذا الحوار بين الأديان أن لا يتم إلاَّ في الرحاب الأكاديمية الضيقة؟

يمكن لأحد أن يجادل ويقول لأن هذا الحوار كان محصوراً في عالم الأفكار، فإنه في حد ذاته أعاق توسيع فكرة الحوار بين الأديان. لكن من السهل اثبات العكس. و لعل حالة أسبانيا في العصور الوسطى تعتبر أفضل مثال على ذلك. على الرغم من الهيمنة العربية الطويلة، فقد كان الاتصال بين الإسلام والمسيحية واليهودية مثمرا للغاية. يكفي أن أذكر أول مدرسة للدراسات الشرقية، والتي افتتحها في طليطلة رهبان الدومينيكان كثمرة من ثمارات اتصالهم مع العالم الإسلامي وحضارته. كانت طليطلة هو أول

مركز ثقافي كبير في عصر القرون الوسطى الغربية. ففي القرن الثاني عشر كانت تمثل طليطلة للعالم المسيحي ما كانت تمثله بغداد للعالم الإسلامي. كما أنه يكفي أن نذكر أن ابن سينا ترجمت في طليطله من قبل مجموعة صغيرة مؤلفة ، من وسط المثقفين منهم، ابن داود ، وهو يهودي ضليع باللغة العربية والذي ترجم النص بالقشتالية و بعدها ترجم كونديزلفي وهو مسيحي النص من القشتالية إلى اللاتينية. هذه الترجمة لابن سينا أمر في غاية الأهمية لأنه: أولاً كان لدينا يهودي ومسيحي يعملان سويا بهدف ترجمة نص فارسي إلى العربية.

ثانياً، كان نص ابن سينا هو أول عمل فلسفي يصل العالم الغربي. إننا كثيرا ما ننسى أن اللاتين عرفوا ابن سينا حتى قبل أن يتم ترجمة أرسطو تماماً للاتينية. في الواقع ، إذا كنا نستطيع أن نتكلم اليوم عن فلسفة و لاهوت في القرن الأحدي عشر الذي يسمى "سكولاستي" ١ ذلك أساساً بسبب أن ابن سينا قد سبق و أن قُريء واستخدم في وقت مبكر في نهاية القرن الثاني عشر. آلن دي لبرا واحد من أفضل المؤهلين الباحثين عن حضارة العصور الوسطى يقول إن "ان ابن سينا و ليس أرسطو هو من فتح عيون العالم الغربي على الفلسفة.

بدأت شرارة حركة تثقيف العالم الغربي في طليطله ثم استمرت إلى نابولي وجنوب ايطاليا ويرجع ذلك إلى "السياسة الثقافية" التي استخدمها الأمبراطور فريدريك الثاني. بسب حبه للعلم والثقافة العربية صمم الأمبراطور فريدريك الثاني على معارضة الحملة الصليبية السادسة ، وهذا

بدوره أدى إلى حرمان البابا غريغوري التاسع له من الكنيسة. إلا أن هذه العقوبة القاسية للغاية لم تثن الإمبراطور عن العمل في صالح إنهاء الصراع، و تجسد هذا الأمر بتوقيعه معاهدة لوبو في فبراير ١٢٢٩ . كمؤسس لجامعة نابولي كان فريدريك الثاني يشبه خلفاء بغداد القدماء بمعنى أنه كان يقوم على سياسة ترجمة وشراء الكتب وكان يتمتع بصحبة فريق من المترجمين المشهورين مثل مايكل سكوت الذي كان يشرف على أعمال فريق صغير من المترجمين باللغتين. باختصار قدم الامبراطور فريدريك الثاني لدول أوروبا الغربية ثراء التفسير الفلسفي ، والفضول العلمي ، وقبل كل شيء، التقدير المثالي للعالم العربي. يجب ألا ننسى أن أول محاولة لترجمة معاني القرآن الكريم تمت نحو ١١٤١ م بعد مشورة فيرنبيل بيد من دير كلوني واحد من أهم المراكز الدينية والثقافية من العصور الوسطى.سواء أكان ذلك في جامعة باريس أو في مختلف الجامعات الإيطالية فإن البحوث و المراجع التي ترجع إلى لأطباء وعلماء الفيزياء وعلماء الفلك العرب لها مكانة عالية تساوي تلك التي تتمتع بها وثائق تعود إلى العصور القديمة الكلاسيكية.

حتى في عالم اللاهوت فإن آباء الكنيسة أمثال توما الاكويني والبرت الكبير أو برابانت لم يترددوا في استخدام التعليقات العربية على نصوص أرسطو،و أفلاطون أو الأفلاطونين الجدد.وهكذا يتضح أن التراث العربي يكمن وراء أساس أوروبا الحديثة ذلك التراث الذي يتم إنكاره في كثير من الأحيان و نادراً ما يوضع في استخدام جيد.لقد تعودنا على مثل هذه قوالب الاتهام الجاهزة (الكليشيهات) مثل التوسع الإسلامي، الأصولية الدينية،

عدم التسامح، ومع ذلك فإننا لا نزال راضيين بمجرد الاستكشاف السطحي للمشكلة ، لا نجرؤ حتى نصل إلى بعدها العميق.

الهجرة الجماعية للمسلمين في الفضاء الأوروبي ليس سببها مجرد عوامل اقتصادية أو سياسية.بشكل معين، فإنهم يعتبرون أنفسهم مرتبطين بالحضارة التي يتبنوها، وهذا يرجع إلى التراث الثقافي المشترك ، وهذه ليست مجرد افتراضات فلسفية أو اجتماعية ولكنها حقائق ملموسة وقائمة على أسس متينة. فالمسلم يمكن أن يكون مواطناً أوروبياً جديراً بالثقة ويظل مؤمناً مخلصاً دونما أي حاجة للتنازل. تكمن الصعوبة عندما يساء تفسير التراث الثقافي الأوروبي. كثيراً من الأوقات نخلط بين الثقافات بعينها و بين التراث الذي أنتجة هذه الثقافات في زمن معين. فإنه يسمح لنا أن نتحدث عن الثقافة اليونانية واللاتينية وألايبيرية والثقافة الألمانية إلا مفهوم التراث الثقافي الذي يتجاوز المجال القومي. فإنه يمتد على كامل الفضاء الأوروبي، وهذه الحقيقة يمكن ملاحظتها في المقام الأول من طريقة الناس ومعيشتهم اليومية. وعليه فإن إمكانية حصول حوار حقيقي بين الأديان مشروط بالفهم والقبول المتبادل لهذا التراث.

يجب أن لا ننسى أن فكرة مفهوم الدين في حد ذاتها توحي بوجود مشاركة حقيقية تتجاوز خلافاتنا. وبالمثل فإن الثقافة تعني قبل كل شيء وجود حوار يتعين علينا جميعاً أن نتعلم شيئاً منه. القاسم المشترك في نهاية المطاف هو الإنسان ، بكل جوانبه، ومن هذا المنظور يمكن للمسلمين والمسيحيين واليهود العمل معا من أجل فهم أكبر للغز العالم.